الحداثة بين إكراهات الواقع والرهانات الإبستمولوجية

بقلم
د/ نسيبة مساعدية
جامعة عباس لغرور ـ خنشلة
sibamess@yahoo.fr

المقدمة

تعد الحداثة مصطلحًا ومفهومًا من أكثر الموضوعات التي شغلت بال الباحثين من نواحي كثيرة؛ فلسفيا واجتماعيا وتاريخيا واقتصاديا وأدبيا وفنيا، وامتزجت الحداثة بتجاذبات كثيرة كانت ولا زالت تشكل تحديات فكرية جمة بخاصة مع ظهور ما بعد الحداثة، إلى غيرها من التوجهات التي في كل مرة نبحث عن مفهوم الحداثة تتجلى لنا، وهو ما يوحي بصعوبة الإمساك به، إلا أن عملية البحث فيه تعد بحق مغامرة جمالية تستحق ذلك الجهد.

يصوغ **أوزفالد شبغلر** في كتابه "**انحطاط الغرب**" أن **الحداثة مفهوم متعدد المعاني والصور يمثل رؤية جديدة للعالم مرتبطة بمنهجية عقلية مرهونة بزمانها ومكانها،** ويمكن القول أن الحداثة موقف عقلي تجاه مسألة المعرفة، وإزاء المناهج التي يستخدمها العقل في التوصل إلى معرفة ملموسة.

إضافة إلى ذلك لم تنشأ الحداثة فجأة أو صدفة، بل أسهمت الكثير من المعارف والمراحل التاريخية المتعاقبة في الحفر بداخلها، وجعلتنا نتساءل ونستفسر عن كل جديد، فكما يقول المفكر **محمد أركون** في كتابه **الإسلام والحداثة** أن **الحداثة موقف للروح أمام مشكلة المعرفة**، وهذا ما يجعل الحداثة سؤالا متجددا لا يستقر على جواب

ولا يقبل الحلول البسيطة المستعجلة.

- ستتبع هذه الورقة البحثية:

إشكالية الحداثة بين الضبط المعرفي والمنهجي؟ علاقة المراحل التاريخية الماضية بتشكيل مفهوم الحداثة؟ إكراهات الواقع المتحدية لظهور الحداثة؟ مدى ارتباط الحداثة بالفلسفة؟ انصهار الفنون والآداب في تكوين الحداثة؟ أي أثر للحداثة على العقل الغربي؟ كيف استقبل الوضع العربي الحداثة؟

ولخصوصية موضوع الحداثة فكثيرة هي الدراسات التي تناولت هذا الموضوع بالبحث والتحقيق نحو: مؤلفات محمد أركون ومحمد عابد الجابري وأدونيس وكمال أبو ديب، وغيرها من الدراسات العربية التي سعت إلى بيان مفهوم الحداثة وتبني مشروع حداثي عربي إما مؤسس على خلفيات الحداثة الغربية أو مناقض للعق الغربي، إلا أنها جميعا أنارت الفكر العربي بأفكار ونظريات حديثة للحداثة وما بعد الحداثة. تمت معالجة عناصر هذا الموضوع وفق المنهج التاريخي بتتبع المراحل التاريخية الأولى المُشكلة للحداثة، وآليات الوصف والتحليل بعرض مقولات الحداثة وتحليل مضمونها وإسقاطها على معطيات الواقع.

1ـ مفهوم الحداثة لغة واصطلاحا:

الحداثة Modernité يصعب تحديد مفهومها بدقة فكما يعتبرها البعض «**من المفاهيم التي تتمرد على المفهمة**»[1]، فهي تتوزع بين اختصاصات وعلوم ومعارف عدة، «**إن فكرة الحداثة هي فكرة صعبة الفهم في ذاتها**»[2]، فمن اللغوية الحداثة مشتقة من الجذر اللغوي(ح-د-ث): «**حَدَثَ الشَّيءُ يَحْدُثُ حُدُوْثًا وَحَدَاثَةً، فَهُوْ مُحْدَثٌ وَحَدِيْثٌ،**

[1]- فتحي التريكي ورشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، مركز الإنماء القومي، دط، 1992، بيروت، ص128.
[2]- ألان تورين، نقد الحداثة، تر أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، دط، 1997، القاهرة، ص270.

وَحَدَثَ اَلْأَمْرُ أَيْ وَقَعَ وَحَصَلَ، وَأَحْدَث الشَّيءَ أَوْجَدَهُ، وَالْمُحْدَثُ هُوْ الْجَدِيْدُ مِنَ اَلأَشْيَاءِ»[1]، فالحداثة تعني كل ما هو مرتبط بالجديد والتجديد والجدة.

أما من ناحية المفهوم الاصطلاحي فيصعب تحديد مفهوم واحد،«**ليست الحداثة مفهومًا سوسيولوجيًا أو سياسيًا أو تاريخيًا بحصر المعنى، وإنما هي صبغة مميزة للحضارة، تعارض صبغة التقليد أي أنها تعارض جميع الثقافات السابقة والتقليدية، فأمام التنوع الجغرافي والرمزي لهذه الثقافات، تفرض نفسها وكأنها واحدة متجانسة مشعة عالميا، انطلاقا من الغرب ويتضمن هذا المفهوم إجمالا الإشارة إلى تطور تاريخي بأكمله وإلى تبدل في الذهنية**»[2]

نفهم من هذا القول أن: الحداثة لا تقتصر على أبعاد اجتماعية وسياسية وتاريخية فقط، بل تتوسع لتشمل أبعادا حياتية أخرى،وأيضا الحداثة تمظهر للحضارة، على اعتبار استقبال التجديد الثقافي الممتد من ثقافات مختلفة، وتحيل الحداثة على ما عرفته الثقافة الغربية من تطور فكري عبر مراحل تاريخية متنوعة ساهمت في تشكيل مفهوم الحداثة.

لذلك يمكن اعتبار أن الحداثة «**مفهوم حضاري شمولي يطال كافة مستويات الوجود الإنساني**»[3]كما أكد الفيلسوف **هابرماس**«**إن الحداثة تعبر دائما عن وعي عصر ما يحدد نفسه(...)، ويفهم ذاته كنتيجة انتقال من القديم إلى الحديث**»[4]، فكل عصر من العصور أثر بشكل كبير في لملمة شتات تكوين الحداثة بخاصة أن المعارف تراكمية

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، مج 3، بيروت، مادة (ح، د، ث)، ص907.

[2]– فارح مسرحي، الحداثة في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، 2006، الجزائر، ص21.

[3]– محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، دار توبقال، 2000، المغرب، ص7.

[4]– يورغن هابرماس، الحداثة مشروع ناقص، تر بسام بركة، ، مركز الإنماء القومي، ع29، 1984، بيروت، ص42.

وتواصلية، «**فالحداثة في جوهرها عملية انتقالية تشتمل على التحول من نمط معرفي إلى نمط آخر، يختلف عنه جذريًا، وهي انقطاع عن الطرق التقليدية لفهم الواقع وإحلال أنماط فكرية جديدة**»[1]، ويظهر ذلك في كم التحولات المعرفية التي شهدتها حركة الفكر الأوروبي في مناحي متشعبة من البحث الإنساني.

2ـ المسارات التاريخية لظهور الحداثة:

بالعودة إلى الوراء وإلقاء نظرة إلى أبرز المحطات التاريخية التي ساهمت في تشكيل الحداثة نجد مجموعة من الحقب التاريخية ومنها:

2-1-عصر النهضة Renaissance:

يُقصد بعصر النهضة الفترة التي تم فيها العبور من العصر الوسيط إلى العصر الحديث، أي القرون(14-15-16م) ويؤرخ لها أيضا بسقوط القسطنطينية سنة 1453م حيث أدى ذلك إلى:

- هجرة عدد كبير من العلماء إلى دول أخرى، حاملين معهم ما استطاعوا من كتب وتطويرها في قالب جديد كان نواة النهضة الأوروبية.

- انتعاش التجارة وازدهار المدن الأوروبية بخاصة عبر الأبيض المتوسط فظهرت طبقة جديدة من الأغنياء تنافس على السلطة.

- الاهتمام بالعلوم وإحياء المعارف ومحاولة البحث عن مخرج لسلطة الكنيسة عن الدولة.

وقد عرفت النهضة الأوروبية أيضا ميلاد حركتين فكريتين مكملتين لعضهما الأولى؛ ذات النزعة الإنسانية، والثانية ظهور العلوم الطبيعية «**فثمة شيئان يميزان**

[1]- هشام شرابي، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، تر محمود شريح، دار نابلس، ط4، 2000، السويد، ص39.

عصر النهضة عما سبقه من عصور: اكتشاف العالم واكتشاف الإنسان»[1]، فالاهتمام بالعلوم والتوجه نحو كل ما يتعلق بالإنسان من الناحية المادية والروحية زاد من نسق التطور والانفلات من ترسبات العصور الوسطى.

ولم يشمل عصر النهضة الاهتمام بالعلوم فقط فقد تعداه إلى فن العمارة وتكوين العقل الحديث بعيدا عن السلطة اللاهوتية وتأثيراتها السلبية بخاصة الثورة الفلكية التي أحدثها كوبرنيكوس بإقراره لنظرية مركزية الشمس «**فالتجديد الذي جاء به كوبرنيكوس كان جذريا حقا عندما تقدم به، فقد كان الوصف الفيزيائي للكون الذي جاء به كوبرنيكوس، أقرب إلى الحقيقة من النظام البطلمي القائم على مركزية الأرض، ثم إن العلماء الذين أتوا بعد كوبرنيكوس من أمثال كبلر وغاليلو ثم نيوتن بعد ذلك، ما كان بوسعهم أن يحققوا ما حققوه لولا التحول من مركزية الأرض إلى مركزية الشمس**»[2]، طرحت نظرية كوبرنيكوس فكرة الكنيسة عن الكون التي زرعتها داخل العقول أزمانا متلاحقة، فالكنيسة من خلال الكتاب المقدس رسخت ودافعت عن فكرة عن مركزية الأرض وأن الشمس هامش، ما جاء به كوبرنيكوس زعزع ذلك الانسياق الأعمى وراء تراهات الكنيسة، ووصل بها إلى معاقبة كل من يعارض أوامرها أو يأتي بجديد مخالف لما تقدمه لبقية أفراد المجتمع.

وبالحديث عن تسلط الكنيسة يقودنا الأمر إلى ذكر حركة الإصلاح الديني Rèforme Religieuseبقيادة مارتن لوثر (1483- 1546)، تشكلت هذه الحركة في ألمانيا بداية للتوسع داخل باقي الدول الأوروبية، عُرفت هذه الحركة بأنها «**مناهضة للكاثوليكية وعملت على التقليل من قيمة الكنيسة والرفع من قيمة الإيمان**

[1]- أحمد محمود صبحي وصفاء عبد السلام جعفر، في فلسفة الحضارة، دار النهضة العربية، 1999، بيروت، ص104.

[2]- محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، ص102.

الشخصي الداخلي فوق المظاهر الخارجية للدين»[1].

وأفكار مارتن لوثر ترى أن رجال الكنيسة أحكموا إغلاق مفاتيح العقل والحرية، بنبذهم أية فكرة تدعوا إلى التحليل واستخدام المنطق قصد كشف الحقائق والاقتناع بها، وملاحظة المعارف الإنسانية برؤية علمية تخدم الإنسان في المرتبة الأولى بدلا من الانصياع التام للكنيسة وأفكارها المتعصبة المتحجرة، لذا **قال مارتن «إن الكنيسة ورجال الدين ليسوا وسطاء بين الإنسان والله، ورفض صكوك الغفران، ورأى أن كل إنسان يجب ألا يخضع إلا لسلطان الكتاب المقدس، كما دعا إلى حرية تأويل النصوص المقدسة»**[2].

2-2-عصر التنوير Enlightenment Peried :

يمثل القرنين 17-18م البداية الأولى لعصر التنوير، باتفاق المؤرخين والفلاسفة وكذا امتداد تأثيراته- عصر التنوير- على الحداثة ككل فيما بعد، ومن أهم انجازات هذا العصر ظهور المنهج التجريبي مع فرنسيس بيكون، انطلاقا من نقده لِمَا جاءت به فلسفتي أفلاطون وأرسطو واتخاذها قبل ذلك أداة للتفكير، رأى بيكون أن التفكير الأرسطي يجعل الإنسان يسلم بالنتيجة دون تمحيص أو تأكيد، وهو مع توالي الزمن لا يمكن أن يأتي بجديد، لأنه لا يتفق مع روح العصر ورغبة الإنسان في التجديد، إذ هو **«يجر التجربة وراءه كالأسير»**[3].

أثرت أفكار بيكون فيما بعد الفلاسفة اللاحقين أمثال: دافيد هيوم(1711-1776)، جون لوك(1732-1804)، جون استيوارت مل(1803-1873)،

---

[1]- م روزنتال، الموسوعة الفلسفية، تر سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط5، 1985، بيروت، ص552.

[2]- مايكل هارت، الخالدون في العالم مئة أعظمهم محمد(ص)، تر أنيس منصور، الزهراء للإعلام العربي، ط6، 1986، القاهرة، مادة (مارتن لوثر)، ص96.

[3]- فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، دت، بيروت، ص147.

وغيرهم ممن تأثروا بنظريته ورؤاه، وجه بيكون نقدا قاسيا إلى المنطق القديم الذي رآه «**عاجزا عن اكتشاف أسرار الطبيعة، بل إنه يؤدي إلى ترسيخ الأخطاء التي تستند إلى مفاهيم قديمة، وعلة ذلك في رأيه؛ أن المنطق الأرسطي أداة غير صالحة للكشف العلمي، إنه منطق قياسي تكون النتيجة فيه صادقة على فرض أن المقدمات صادقة وليس على أنها صادقة بالفعل**»[1]، عمل بيكون على تحرير العقل من السلطة اللاهوتية وتوجيهه نحو دراسة الحقائق الطبيعية والنفسية والاجتماعية دراسة دقيقة، وفصل العلوم عن الغايات الدنيوية والدينية، مؤكدا في الوقت ذاته على أنه لا ينبغي أن نعزو قيمة حقيقية إلا للمعرفة العلمية القائمة على الاستقراء والتجريب، وينبغي ترك أية غاية للبحث خارج العالم كمضمون خالص، والابتعاد عن تبعات السلطة اللاهوتية بصورها المادية والمعنوية، قدر المستطاع حتى لا تتأثر عملية اكتشاف الحقائق وتنوير العقل والذات الإنسانية من أوهام الدين.

ورأى بيكون أن «**الذي يحدد العقل هو الملاحظة والتجربة، أما هو فمجرد أداة تصنيف وتجريد ومساواة ومماثلة، ويرى أن الإنسان هو خادم للطبيعة ومفسر لها، وخاضع لنظامها، وخدمة الإنسان للطبيعة هي التي تؤدي إلى إدراك قوانينها وسيادة الإنسان عليها فيما بعد، أي استكشاف كل ما يتصل بها**»[2]، فالعقل ينطلق في تحديد الوجود انطلاقا من ملاحظة الظواهر الطبيعية والإنسانية، ومن ثمة التجريب عليها حتى يصدق الحكم، كما اعتبر أن علاقة الإنسان بالطبيعة تخرج عن دائرة الصراع إلى التكامل، فالإنسان عنصر هام من عناصر الطبيعة ولا يمكنه أن ينفصل عنها، كما يمكن لتلك العلاقة أن تسمح للإنسان على التعرف واستكشاف المعارف الجديدة

[1]- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية(إشكالية التكون والتمركز حول الذات)، المركز الثقافي العربي، 1997، المغرب، ص63.

[2]- المرجع السابق، ص65.

التي تحيا داخل الطبيعة كمظهر دال عليها، وكلما استطاع الإنسان ضبط معارفه وتحيق المزيد من اكتشافات الطبيعة أمكنه ذلك فيما بعد على التحكم والتكييف مع الطبيعة بعناصرها المختلفة. ويجمل أندرسن الآثار التي تركها بيكون في الفكر الحديث بالنقاط الثلاث الآتية:

1/ حرر العلم من حفظ المعارف وترديدها، وخلصه من طريقة النقل والرجوع إلى التراث. 2/ دعا إلى الفصل بين العلم البشري والوحي الإلهي.

3/ نادى بفلسفة جديدة ترتكز على أساس متين من العلم الطبيعي، لا من الميتافيزيقا التجريدية.[1]

ويتميز أيضا عصر التنوير بظهور حراك فلسفي متقدم ومستقل عما كان سائدا من قبل، ومتذمرا من أوضاع أوروبا بخاصة الصراعات والحروب الدامية (16-17م) التي مزقت الجسد الأوروبي وجعلت الإنسان في ضياع تام، ما جعل الإنسان الأوروبي يبحث عن بديل أخر للمعرفة خارج السلطة اللاهوتية، بديل يمكنه من إصدار الأحكام بنفسه واختيار ما يناسبه، وهذا لا يكون إلا في ظل الاكتشافات العلمية، وقد عبر الفيلسوف كانط عن ذلك قائلاً «**عصر التنوير هو خروج الإنسان من حال كونه قاصرا، وتعني هذه الحالة أنه عاجز عن استعمال ذهنه دون الاستعانة بالآخرين، وهو المسؤول عنها لأن سببها ليس في الذهن، بل نقص في أخذ القرار ونقص في الشجاعة؛ فكن شجاعا واستعمل ذهنك هذا هو رصيد الأنوار**»[2]، نفهم من هذا القول أن عصر التنوير يقصد منه الدعوة لاستخدام العقل ومنحه الحرية في

[1]- فرنسيس بيكون، الأرغانون الجديد،،آفاق الفلسفة، تر فؤاد زكريا، المركز الثقافي العربي، 1988، ص 117ص 118.

[2]- بوزيد بومدين وآخرون، قضايا التنوير والنهضة في الفكر العربي المعاصر، سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، بيروت، ص70.

التفكير، التي ستعود على الفرد بالحرية من أفكار عصر الظلمة وكذا اعتبار العقل المصدر الأساس لكل معرفة خارج سلطة الكنيسة.

ومع الدعوة لاستخدام العقل وتحريره، برز مجموعة من المفكرين والفلاسفة الداعيين للتفكر العقلي على رأسهم ديدرو(1713-1784)، دالانبير(1718-1783) أصحاب مشروع الموسوعة أو القاموس المنهجي للعلوم والفنون والصناعات «**وهو مؤلف ضخم يقع في 17مجلدًا، الهدف منه تزويد القارئ بالمعلومات في كل فرع من فروع المعرفة، وتوجيه الاهتمام إلى تطبيق العلم في ميدان الصناعة والتجارة والفنون**»[1]، وقد ضمت الموسوعة كتابات العديد من الفلاسفة نحو مونتيسكيو(1679-1755)، فولتير (1694-1778)، جون جاك روسو(1712-1778).

قام جون لوك (1630-1704) بتعميق أسس الفكر التجريبي، فالتجربة لديه نوعان، التجربة الحسية الظاهرية المتصلة بالعالم الخارجي، والتجربة الباطنية التأملية المتصلة بالعالم الداخلي وسائر الأفكار، أي أن التجربة والإحساس يسبقان العملية العقلية، إذ أن العقل لا يعمل إلا بعد أن تمده الخبرة والتجربة بالأفكار والمعاني، عرف عن لوك نقده لفكرتين متداولتين في عصره: -الاعتقاد بأن المعرفة تعتمد على مبادئ فطرية سابقة على التجربة، الاعتقاد بأن القياس المنهج الصحيح للمعرفة، ومن جملة ما غيره جون لوك في تاريخ الفكر الفلسفي التجريبي:

1/ أول من وضع مشكلة المعرفة موضع البحث والتعمق.

2/ توجيه أنظار الناس إلى قضية المعرفة، وبين أوجه النقص في طرائق التفكير القديمة.

---

[1]- فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص463.

3/ قدم تصورات مهمة حول المفاهيم الفلسفية وطرائق تحليلها.

4/ طبق الأسلوب التجريبي للبحث في موضوع نظرية المعرفة.

5/ الاستعانة بالمنهج الاستقرائي في البحث عن أصل المعرفة الإنسانية.[1]

كما أكد لوك طيلة مشواره البحثي على أن سلطة رجال الدين ينبغي أن «**تنحصر داخل حدود الكنيسة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تمتد إلى شؤون المدينة، لأن الكنيسة منفصلة تماما ومتميزة عن الدولة وعن الأمور المدنية، إن الحدود على كلا الجانبين ثابتة لا يمكن تغييرها**»[2].

استفاد من أفكار لوك دافيد هيوم بتعميق البعد التجربي في فلسفته، اعتمادا على أن الخبرة الحسية هي المصدر الوحيد الذي يستقي منه الإنسان معرفته بالعالم الخارجي، لأن الأفكار كلها ليست إلا صورا مما كانت الحواس قد انطبعت فيه انطباعا مباشرًا، إذ يستحيل التفكير في شيء لم يكن قد سبق الإحساس به بإحدى الحواس الظاهرة أو الباطنة، «**فالفكرة المركبة تتضح وضوحا تاما وكاملا ومحددا إذا حللت إلى الأفكار البسيطة التي ركبي منها، ووراء كل فكرة بسيطة مصدر حسي**»[3]، ويستند هيوم في فلسفته هذه على نوعين من العلاقات: علاقات بين معنى ومعنى، وعلاقات بين أمور الواقع، العلاقات الأولى تظهر في الرياضيات، أما الثانية ففي العلوم الطبيعية.

ويرى هيوم أيضا أن المعارف الاحتمالية نفسها ليست على درجة سواء، ولهذا يقسمها إلى قسمين: ما هو قائم على أساس البرهان، وما هو قائم على أساس التخمين، وبهذا تصبح درجات الإثبات لديه ثلاثا: أعلاها اليقين المنطقي، ويتلوها درجة

[1]- عزمي إسلام، جون لوك، دار الثقافة، دط، دت، مصر، ص17ص18.

[2]- جون لوك، رسالة في التسامح، تر عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، 1988، بيروت، ص83.

[3]- زكي نجيب محمود، نحو فلسفة علمية، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ص285.

الاحتمال البرهاني، وأدناها درجة الاحتمال التخميني، والانتقال من الاحتمال التخميني إلى الاحتمال البرهاني، إنما يتم على خطوتين: احتمال المصادفات ثم احتمال الأسباب، فالمصادفات يتعلق بالحوادث وقوعها حين تقع بغير سبب معلوم يكون هناك أكثر من سبيل واحد لمجرى الحوادث كلها، أما احتمال الأسباب فهو الذي يقر به الإنسان بناء على اطرادات سابقة وقعت الحوادث على نسقها[1].

ومن الفلاسفة أيضا الذين أضافوا إضافات جادة في المنهج التجريبي، نجد الفيلسوف باركلي(1685-1753)، أساس فلسفته بأن (الوجود إدراك)، بمعنى أن المعرفة تقتصر على ما يبدو للشعور بأعراض حسية، وأن ما لا يبدو محسوسا فهو وهم محض، وأقر بالمعاني المجردة في الذهن، لكنه ردّها إلى المعارف الجزئية وليس إلى المعاني المجردة، ويرى أن «**وجود الأشياء في الطبيعة، ووجودها كنماذج أزلية، الأشياء في الطبيعة هي تلك الأشياء التي خلقت في الزمان، أما الأشياء باعتبارها نماذج أزلية فهي الأشياء باعتبارها قائمة في عقل الله منذ الأزل**»[2]، يُفهم من هذا أن فكر باركلي يقوم على المعرفة الحسية، أي أن الحواس تؤمن المعرفة وأن وجود الأشياء عنده محصور في مجرد إدراكها الحسي، كما أن الأشياء لا تتمتع بوجود حقيقي دائم إلا من حيث أنها قائمة في عقل الله (العقل اللامتناهي).

3ـ فلسفات الحداثة:

3-1-الفلسفة العقلية:

لما نتحدث عن الفلسفة المثالية معناها الفيلسوف الفرنسي ديكارت (1596-1650م) الأب الحقيقي للفلسفة الأوروبية الحديثة، المؤسس الشرعي للذاتية

[1]- ينظر: عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية(إشكالية التكون والتمركز حول الذات)، ص69.

[2]- باركلي، المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس، تر يحي هويدي، دار الثقافة، 1976، القاهرة، ص110.

الغربية التي كسرت سطوة اللاهوت على المعرفة العلمية، ظهرت فلسفته في مرحلة كانت البورجوازية الفرنسية لا تزال في بداية صعودها الطبقي، ولم تبلغ درجة الاصطدام المباشر مع علاقات الإنتاج الإقطاعي، فما كانت تحتاجه البورجوازية آنذاك ليس هو إلغاء علاقات الإنتاج الإقطاعية، بل فقط تطوير قوى الإنتاج ومن أجل تطويرها كان يتعين تطور العلوم الطبيعية، ومن أجل تطورها كان لا بدا من سيادة الفكر الحر، لكن الحاجة إلى تطور علوم الطبيعة عقلانية كانت إذن تصطدم بشكل حاد مع السلطة المعرفي للكنيسة، وهذا التناقض بين سلطة العقل وسلطة الكنيسة في مجال الطبيعة، هو الذي عبرت عنه تاريخيا فلسفة ديكارت، وعلى هذا قال كريسون بأن «**ديكارت مدين للفكر التقليدي أكثر بكثير مما اعتقد هو نفسه**»[1].

قدم ديكارت كتاب (التأملات في الفلسفة الأولى) إلى علماء الدين في كلية (أصول الدين المقدسة) بباريس، مؤكدا أن «**مسألتي الله والنفس أهم المسائل التي من شأنها أن تبرهن بأدلة الفلسفة خيرا مما تبرهن بأدلة اللاهوت: ذلك أنه وإن كان يكفينا نحن معشر المؤمنين أن نعتقد بطريق الإيمان، بأن هنالك إلهًا وبأن النفس الإنسانية لا تفنى بفناء الجسد، فيقيني أنه لا يبدو أن تقدر على إقناع الكافرين بحقيقة دين من الأديان، بل ربما بفضيلة من الفضائل الأخلاقية، إن لم نثبت لهم أولًا هذين الأمرين بالعقل الطبيعي**»[2].

شغل اللاهوتيون بصنف من الفكر الذي يضع الإنسان في عالم مدعوم بقوة الإيمان وشروطه، فيما كان ديكارت يسعى لوضع الإنسان أمام عالم يحكمه العقل وقوانينه، عكس ما كان سائدًا من جعل الإنسان وسط عالم متداخل بين فعل

[1]- أندريه كريسون، تيارات الفكر الفلسفي، تر نهاد رضا، منشورات عويدات، 1982، بيروت، ص43.
[2]- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية(إشكالية التكون والتمركز حول الذات)، ص71.

الإنسان وفعل الله، ويؤكد ديكارت بأنه يجب البرهنة على كل شيء بالعقل رغم التباس العقل لديه بالمرجعيات اللاهوتية، وتقوم فرضية ديكارت على أساس إثبات الذات المفكرة أولا وإثبات الله خالقها ثم إثبات العالم، ويضيف «**رأيت من يريد أن يشك في كل شيء لا يستطيع من ذلك أن يشك في وجوده حين يشك، وأن ما سبيله في الاستدلال على هذا النحو من عدم استطاعته أن يشك في ذاته، ولو كان يشك في كل ما سواه ليس هو ما نقول عنه أنه بدننا، بل ما نسميه روحنا أو فكرنا، بهذا الاعتبار أخذت كينونة هذا الفكر أو وجوده على أنه المبدأ الأول، ومنه استنبطت بكل وضوح المبادئ التالية: أعني وجود إله صانع ما هو موجود في هذا العالم، ولما كان الله تعالى منبع كل حقيقة، فإنه لم يخلق الذهن تصورا واضحًا جدا ومتميزا جدا، تلك هي المبادئ التي استعملتها فيما يتصل بالأشياء اللامادية أو الميتافيزيقية، ومن هذه المبادئ التي استنبطت استنباطا واضحا كل الوضوح ومبادئ الأشياء الجسمانية أو الفيزيقية، أعني وجود أجسام ممتدة طولا وعرضا وعمقا، وذات أشكال مختلفة**»[1].

أي أن فلسفة ديكارت مقسمة بين الميتافيزيقيا والفيزيقيا، الأولي تحوي مبادئ المعرفة من بينها تفسير الله، أما الثانية فتهتم بمعرفة المبادئ الحقة للأشياء المادية، كما يعتبر ديكارت الفلسفة علم كلي وتتضح نزعته الأخلاقية المستمدة من الفلسفة القديمة، هذا ويرى بعض النقاد أن ديكارت «**يمثل نهاية مرحلة أكثر منه تمثيلا لبداية مرحلة، وأنه فيلسوف الإيمان أكثر من فيلسوف العقل... ومعروف أنه حينما عرض لقواعد منهجه استثنى من حكم العقل كل من: العقائد والكنيسة، والكتاب المقدس، والعادات والتقاليد، والأخلاق، ونظم الحكم، فقصر تطبيق أحكام على موضوعات**

[1]- ديكارت، مبادئ الفلسفة، تر عثمان أمين، دار الثقافة، 1979، القاهرة، ص38ص39.

الفكر فحسب الرياضيات والعلوم دون الواقع والأخلاقي والاجتماعي والسياسي»[1]، ويُضاف إلى ذلك تصور ديكارت للفلسفة بأنها شجرة جذورها الميتافيزيقيا، وجذعها الفيزيقيا وفروعها الطب والميكانيكا والأخلاق، والذي أحدث جدلا وخلافا واسعا شديدا بين دارسي فكره وفلسفته، إن نظرته تلك ذات نسق متصاعد من الميتافيزيقيا إلى الفيزيقيا، إلى العلوم التطبيقية بخاصة من يقين ديكارت بأن الفلسفة الحكمة الكلية الشاملة.

شملت فلسفة ديكارت المعتنية بالذات العارفة الاهتمام بالوجود أكثر من الموضوع، فالوجود سابق للماهية، وقد بنى منهجه على أساس رياضي لأن الرياضيات حسبه-ديكارت- قادرة على تقديم نتائج صحيحة لا تشوبها شائبة الشك، لذا فإثبات الميتافيزيقيا علم دقيق يمكن البرهنة على قضاياها بيقين رياضي، ويعتمد ديكارت على الحدس والبداهة العقلية بهدف إثبات الذات أولا، ثم إثبات الله ثانيا، وثالثا إثبات العالم وإدراكه.

الأولى إثباتها يتم بترك الأفكار الموروثة من فلسفات قديمة والبرهنة على عدم نجاعتها، أما الثانية فيتحقق إثباتها بالنظر في صفات الله لأنه علة كل شيء، أما الثالثة فالشك في ما تعترضه لنا الحواس فهي بإمكانها أن تخدعنا أحيانًا، لذا يجب استخدام الشك في كل شيء ولا شيء بمنأى عنه، ويؤكد ديكارت على أن الذات موجودة مادامت تفكر، وهنا صاغ الكوجيطو الديكارتي: أنا أفكر فأنا موجود، وهو مبني على الشك الذي يرتبط ارتباطا ضروريا بالوجود حيث يرى «**ثم أني أمعنت النظر بانتباه في ما كنت عليه، فرأيت أنني أستطيع أن أفرض أنه ليس لي جسم، وأنه ليس هناك أي عالم، ولا أي حيز أشغله، ولكنني لا أستطيع من أجل ذلك أن أفرض أنني غير**

[1]- حسن حنفي، في الفكر الغربي المعاصر، المؤسسة الجامعية، 1990، بيروت، ص 23.

موجود، لأن شكي في حقيقة الأشياء يلزم عنه بضد ذلك لزوما بالغ البداهة واليقين أن أكون موجودا، في حين أنني لو وقفت عن التفكير، وكانت جميع متخيلاتي الباقية حقا، لما كان لي أي مسوغ للاعتقاد بأنني موجود»[1]، لقد أثبت ديكارت التفكير كدليل على الوجود وما دون ذلك فهو عدم، وهذا للتركيز على دور العقل وأهميته، حتى أن الفلاسفة والمفكرين رأوا أ فلسفة ديكارت ثورة كوبرنيكية ثانية تتضح في الشكل الآتي:

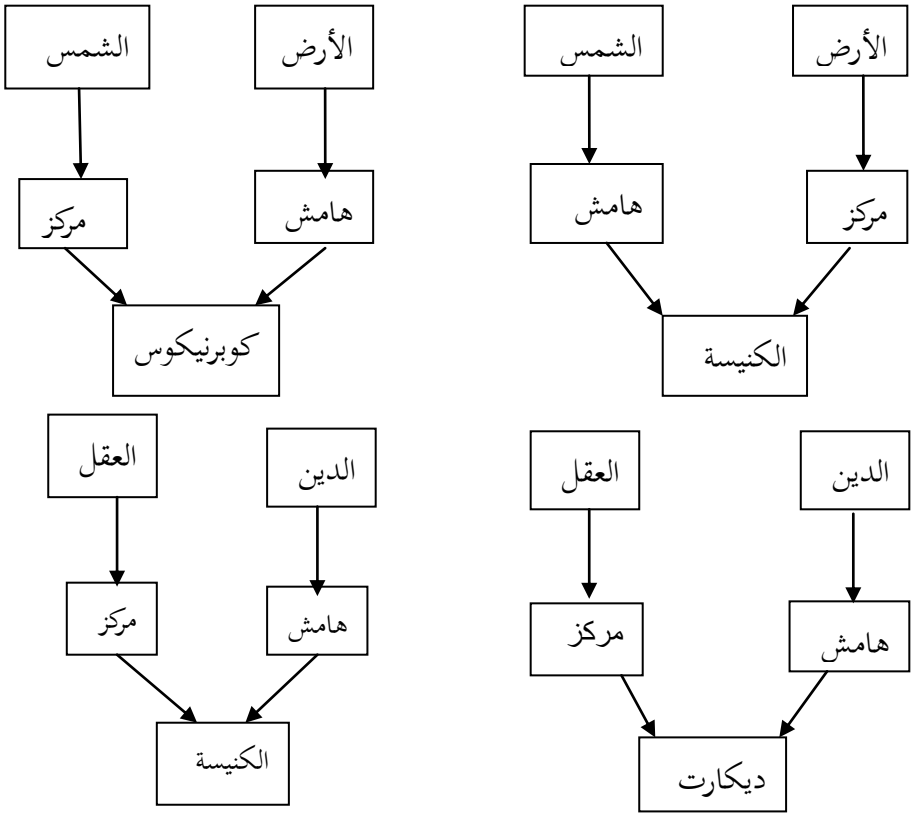

[1]- الربيع ميمون، مشكلة الدور الديكارتي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، الجزائر، ص31.

يتمثل التشابه بين ما أتت به نظرية كوبرنيكوس وفلسفة ديكارت في أن الأولى غيرت ما كان سائدا من قبل حول مفهوم المركز والهامش لدى الكنيسة، أما فلسفة ديكارت فقد جعلت العقل مركزا للمعرفة وجعلت الدين هامشا على اعتبار أنه علاقة خاصة بين المؤمن وربه، أفكار ديكارت تنازلت للكنيسة عن دور الإله الأصلي في خلق الكون، مقابل أن تتنازل له هذه الأخيرة عن دور الإنسان في فهم الكون واكتشاف قوانينه الموضوعية، وكل ذلك جعله يصوغ الدور المركزي للذات الإنسانية في تأسيس المعرفة، وتقديم الثقة في العقل والثقة في قدرته على اكتشاف الحقيقة، والاهتمام بالأخلاق والعقلانية التي تسود العالم اليوم في السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية.

قسم ديكارت الوجود إلى جوهرين مختلفين هما؛ الفكر/المادة، وهو ما يطلق عليه الثنائية الديكارتية وهو ما ساعد على تقدير العمل الذهني، والفصل فيما بعد بين الأمراض النفسية والجسدية، وركز أيضا على أن الإنسان الكائن الوحيد المزود بنفس خالدة، أما الحيوانات فهي مجرد آلات، ويعتمد منهج ديكارت على البدء بالحقائق الواضحة البديهية، وعلى تحليل الظاهرة المركبة إلى عناصر بسيطة حتى يمكن للعقل فهمها بوضوح، ولقد أدى هذا المنهج بالفعل إلى إنجازات كبيرة وإلى زيادة سلطة الإنسان وهذا المسار المسمى بالنظرة الاختزالية؛ أي رد المركب إلى البسيط، وقد استفاد من هذه الأفكار الفلاسفة الماديين الفرنسيين مثل ديدرو، هيلفاتيوس، دهولباش، وكذا الفيلسوف الهولندي سبينوزا الذي يقسم الكون إلى جوهر وعرض، فالجوهر هو الحقيقة الأساسة الثابتة والتي هي بناء الكون وقوانين العالم ومواصفاته، فالطبيعة ذات مظهرين فهي فعالة حيوية خالقة من جهة ومن جهة أخرى هي منفعلة مخلوقة، أما العرض فإنه شيء حادث فردي وصورة زائلة فالإنسان وجسمه وأفكاره وفصيلته كلها أعراض، لذلك فهي زائلة ولكنها صورة عن حقيقة أبدية ثابتة لا تتغير.

2-3-الفلسفة الوضعية:

تأسست هذه الفلسفة على يد الفيلسوف أوجست كونت August Comte*1798-1857، بدأ بوضع الأسس النظرية للإصلاح الاجتماعي بالاعتماد على علم الاجتماع وليس على علم الاقتصاد، لقد جعل كونت من تقدم العلوم ركيزة للتقدم الاجتماعي، أراد كونت أن يكون الإصلاح الاجتماعي والسياسي غاية لفلسفته، إذ رأى أنه لا بد من ربط الفلسفة بالحياة حتى يتمكن من إصلاح المجتمع والذي يكون بصلاح الأخلاق النابع من العقل.

يتضمن منهج كونت استنباط الأحكام بطريقة منهجية لا يعتمد على التجريد والمنطق، وإنما يعتمد على التاريخ إذ هو يحاول الوصول إلى قوانين العقل الإنساني لا عن طريق الاستبطان أو التأمل الباطني، ولكن يحاول الكشف عن هذه القوانين في التتابع الضروري للعصور المختلفة التي تتألف منها مراحل التقدم لذلك العقل عن طريق تحليل التاريخ العقلي للإنسانية، لقد كان كونت معارضا لأي محاولة تاريخية في دراسة العمليات الاجتماعية، إذ يتفق مع جون ستيوارت مل ضد أنصار المنهج التاريخي، الذين يظنون أن الاعتماد على التاريخ وحده يكفي لتقدم المعارف والحقائق، لذا يرى كونت أن **«التاريخ يزودنا بركام من الملاحظات ولكنه لا يقدم لنا النظريات»**[1]، ويقول أيضا **«إنه لا يمكن معرفة ديناميكية التاريخ التاريخية التي تؤسس هذه المعرفة على علم الاجتماع»**[2].

تعد الثورة الفرنسية 1789م من أهم الظواهر التي أنتجت الإصلاح الاجتماعي

*- حياة كونت الفكرية يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:1/1817-1827: أبحاث الشباب، 2/ 1827-1840: إنشاء الفلسفة، 3/1845-1857: إنشاء الوضعية.

[1]- ايكن هنري، عصر الأيديولوجية، تر محي الدين صبحي، دار الطليعة ، 1971، بيروت، ص88.

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الذي تبناه أوجست كونت وعبر عن ذلك صراحة في قوله **«إن الثورة الفرنسية لعبت دورا كبيرا وأكسبتني الخبرة التي بينت لي ضعف الثورة النقدية لإعادة تنظيم المجتمع»**[1]، فقد أبانت عن التناقض الموجود في المجتمع وعن ضياع الفرد داخل البيئة الاقتصادية والتنافر الطبقي كل ذلك أدى إلى زعزعة المفاهيم واغتراب الإنسان داخل مجتمعه، واستفاد كونت من أن **«هناك سمة طبعت موقف الفلسفات التقليدية –من أفلاطون إلى كانط– من العقل، وهي اعتبار العقل حائزا بصفة قبلية لكل المقولات اللازمة لمعرفة العالم الخارجي، أي حاصل بصورة سابقة على التجربة على استعدادات ذهنية، لا أثر للتجربة ولا حتى لتطور المعارف عليها فهي تعتبره عقلا نهائيا كامل البناء، لا يخضع لأي علاقة جدلية مع المعارف التي ينتجها، كما لا تنشأ مبادئه من خلال عمليتي استيعاب الواقع والتلاؤم معه، ولم تنشأ نظرة جديدة إلى العقل بالمفهوم الواسع إلا بتأثير من الثورة العلمية التي هدمت المنطلقات وكرست في مقابل ذلك نظرة تقول أن للعقل بنية قابلة للتغير، وأن للمعرفة تاريخا»** [2].

بمعنى أن الفلسفة الوضعية كانت رد فعل على الاتجاهات النقدية للمذهب العقلاني الفرنسي والألماني على حد سواء، متمثلة في مذهب كانط ومذهب هيجل والاتجاهات العقلية النقدية الفرنسية نحو ديكارت.

استعمل كونت كلمة الوضعي بنشر كتيب سنة 1822م في كتاب ديانة الصناعيين لسان سيمون والذي أعاد نشره في سنة 1824م بعنوان منظومة في السياسة الوضعية Systéme de politique positive، والفلسفة الوضعية لا تقتصر على الظواهر الطبيعية فقط، بل تتعدّاها إلى الظواهر الاجتماعية فتختص بذلك بدراسة المعارف

[1]– المرجع السابق، الصفحة السابقة.

[2]– سالم يفوت، العقلانية المعاصرة بين النقد والحقيقة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط2، 1989، بيروت، ص65.

المتعددة الخالصة والخاصة لكل تخصصات البحث في كل علم، وقد قسم كونت المعرفة إلى ثلاثة أقسام وهي:

1-المرحلة اللاهوتية Théologique : وهي المرحلة التي كان فيها الإنسان يفكر بطريقة غيبية، حيث يعتقد أن الطبيعة تسير وفق أهواء ورغبات قوى تفوق الطبيعة، وهي خفية ومن ثم لم يكن الاعتقاد بخضوع الطبيعة للحتمية **«لقد كانت المفاهيم والمعاني اللاهوتية أساسا متينا ومشتركا للحياة الأخلاقية والاجتماعية، وكانت من جهة أخرى هذه المرحلة هي مرحلة السلطة، سلطة الكهنة والملوك»**[1]، لذلك يرى كونت أنه من الطبيعي أن هذه البداية في التفكير الإنساني قد بدأت بأوهام فوق طبيعية.

2 – المرحلة الميتافيزيقية Métaphysique : حصل فيها تطور هام بالنسبة للمرحلة السابقة، حيث تم الانتقال من التفكير بطريقة غيبية، تعتمد على اللاهوت إلى التفكير بطريقة تأملية مجردة تعتمد على العقل، فقد كف العقل البشري عن تفسير الظواهر بقوى غيبية مفارقة لها، **«ميزة هذه الحركية أو الاندفاع نحو التفكير الوضعي إن فهمنا المضطر إلى أن تسير ببطء درجة فدرجة لا تستطيع أن نمو بطريقة فجائية ودون وساطة من الفلسفة اللاهوتية إلى الفلسفة الوضعية»**[2]ويؤكد كونت أنه **«لا يوجد تضامن تاريخي أو اعتقادي بين الفلسفة الوضعية، وبين هذه الفلسفة ولهذا فهو يعتبر الفلسفة الميتافيزيقية آخر صورة تشكلت بها الفلسفة اللاهوتية»**[3]. بمعنى أن المرحلة الميتافيزيقية هي حل وسطي بين التفكير الغيبي والتفكير المجرد الخاضع لقوانين

[1]– يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، مكتبة الدراسات الفلسفية، ط3، دار المعارف، دت، مصر، ص318.

[2]– بيار ماشيري، كونت الفلسفة والعلوم، ص33.

[3]– بريل ليفي، فلسفة أوجست كونت، ص60.

العقل ولا يوجد قطيعة بينهما بل أن الأولى تصب في الثانية وتتشكلان معًا من جديد، **«المرحلة الميتافيزيقية ليست سوى تغير بسيط عام للمرحلة الأولى، فإن المحرضات فوق الطبيعة تستبدل بقوى مجردة، أي بكائنات حقيقية موجودة في الكائنات المتعددة في العالم»**[1].

4- **المرحلة الوضعية L état positif**: هي المرحلة التي عرف فيها العقل الإنساني مرحلة نضج واضح، حيث طرح الطرق القديمة في تفسيره للظواهر وبدأ بتفسيرها تفسيرا طبيعيا علميا يقوم على الملاحظة والتجربة، مسترشدا في ذلك بالعقل المرتبط بما هو عيني ومحسوس، **«ففي المرحلة الوضعية فإن الذهن الإنساني يتعرف على استحالة الحصول على مفاهيم مطلقة، فيتخلى عن البحث عن أصل ومصير العالم وذلك كبذل مجهود في الاكتشاف بالاعتماد على الاستدلال والملاحظة، في قوانينها الفاعلة أي علاقاتها الثابتة»**[2]، وهذه المرحلة هي التي سمحت بتحديد القوانين المتحكمة بخضوع الطبيعة للحتمية، فإذا عرفنا شروطها نستطيع التأثير على الظواهر أو التنبؤ بما د يطرأ عليها.

لهذا يرى كونت أن القوانين المنطقية التي تحكم في نهاية المطاف العالم الفكري**« هي في جوهرها ذات طبيعة ثابتة مشتركة، ليس فقط في كل زمان وفي كل الأماكن بل أيضا بالنسبة إلى كل المواضيع، وربما كان يتعين على الفلاسفة أن يجمعوا على إلغاء استعمال كل نظرية ترغم على افتراض فوارق حقيقية، أخرى في تاريخ الفكر البشري غير فوارق النضج والاختبار المتطور تدريجيا»**[3] . بمعنى أن المعارف والنظريات تستمد مبادئها من

---

[1]- المرجع نفسه، ص75.

[2]- بيار ماشيري، كونت الفلسفة والعلوم، ص36.

[3]- كونغلهام جورج، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفاتها، تر خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، 1992، بيروت، ص91.

أصل بيولوجي جيني بشكل خاص، وهو بهذا رد على أنصار الفكر التجريبي عندما وضع مفهوم المعرفة وكذا في قوله **«إن التفكير التجريبي المطلق تفكير عقيم و لا يمكن تصوره عل الإطلاق، وليس هناك دلالة علمية لمجرد تكدس الظواهر، وإذا وجد العقل نفسه ملزمًا بين أن يلاحظ أولا لكي يصل إلى النظرية وبين أن يتخيل ثانيا، أولا ليتمكن من القيام بملاحظات فإن هذا المأزق المغلق هو الذي دفعه إلى التفكير اللاهوتي لأنه ليس في حاجة إلى ملاحظات تمهيدية»**[1]. لذلك فمعرفة الفكر الإنساني من المنظور الواقعي هي معرفة تاريخية سوسيولوجية، بذلك وجب دراسة النوع لا الفرد، وتعتبر أيضا الحوادث النفسية تشبه الحوادث الأخرى في كونها تخضع للوانين، ووجب البحث عن هذه القوانين باستخدام منهج وضعي، ويبحث كونت عن الاتساق المنطقي والعقلي بين المعارف داخل الذهن البشري.

3-3-الرمزية: مذهب فلسفي وأدبي ظهرت سنة 1886م حيث أصدر عشرون كاتبا فرنسيا بيانا نشر في إحدى الصحف يعلن ميلاد المذهب الرمزي، وهي مدرسة فلسفية وفكرية وأدبية، استفادت من فلسفة أفلاطون المثالية ومقولاتها عن وجود عالم حقيقي يُعرف بعالم المثل، وأن الأشياء المحسوسة في عالمنا هي صور وظلال لحقائق كبرى، وكذا انتعشت بأفكار كانط وهيجل وتصديها للفلسفة الوضعية التي ترى أن المعرفة الحقيقية هي المعرفة المستمدة من التجربة الحسية والعلاقات المنطقية والرياضية التي يمكن التحقق منها من خلال الأبحاث والأدلة التجريبية.

زيادة على ذيوع أدب التيارات التي دعت إلى الابتعاد بالأدب عن- الأخلاق وقضايا المجتمع-مرجعياته القديمة، وكذلك تبدلت الأوضاع السياسية وعدم استقرارها على وتيرة واحدة، بسبب كثرة الحروب وتصارع الطبقات ومراكز القوة

[1]- المرجع نفسه، ص77.

القديمة والحديثة، أبرز ممثلي هذا الاتجاه كان: بودلير، فرلين، رامبو، مالارميه، أعلن الرمزيون «**أن الجمال يدرك إدراكا ذاتيا تعرفه نفس كل إنسان غير مرتبط بمنفعة حسية أو غاية خلقية، وأنه صادر عن الذوق عن رضا وقناعة، وأن لا غاية له سوى المتعة، ونصت على أن الأحكام الجمالية مبنية على الذوق، وأنها إذا صدرت عن خيال الفنان لها من القوة مثلما للحجج والبراهين العقلية في مجالاتها**»[1]، كان لهذه الأفكار أثر بالغ في عدد من الشعراء والكتاب نحو الشاعر الأديب الأمريكي ادجار ألان بو الذي عرف الشعر على أنه «**الخلق الجميل الموقع، وأنه يقصد فيه التأمل في تجربة ذاتية لنقل صورتها الجميلة، وأن الحكم فيه للذوق لا للفكر، وأن أقوى عناصر الجمال في الشعر ترجع لموسيقاه فهي أعظم سبيل للإيحاء تسمو بالفكر، وتعبر عما لا يمكن المباشرة أو البوح بالشيء**»[2].

لقد انبثقت الرمزية عن نظرية المثل لدى أفلاطون وهي نظرية تقوم على إنكار الملموسة، وتعبر النظرية عن حائق مثالية وتقول إن عقل الإنسان الظاهر الواعي، عقل محدود وأن الإنسان يملك عقلا غير واعٍ أرحب من ذلك العقل، كما أدى انغماس الإنسان الغربي في الماديات بكل أشكالها أدى إلى الابتعاد عن الروح والمضمون، وقد شكل الصراع الحاد بين ما يريده بعض الأدباء والمفكرين من حرية مطلقة وإباحية أخلاقية، وبين ما يمارسه المجتمع من غط وكبت مما زاد من رغبتهم في العودة إلى عالم المثل لأفلاطون، إضافة إلى اعتقادهم بأن اللغة عاجزة عن التعبير عن تجربتهم الشعورية العميقة فلم يبق إلا الرمز ليعبر فيه الأديب عن مكنوناته الشعورية.

---

[1]- محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، ط3، 1984، مصر، ص48.

[2]- علي عشري زايد، بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة الآداب، ط4، 2002، القاهرة، ص 120.

الأفكار والمعتقدات:

- الابتعاد عن عالم الواقع وما فيه من مشكلات اجتماعية وسياسية والجنوح إلى عالم الخيال، بحيث يكون الرمز هو المعبر عن المعاني العقلية والمشاعر العاطفية.
- البحث عن عالم مثالي مجهول يسد الفراغ الروحي ويعوضهم عن غياب العقيدة الدينية.
- اتخاذ أساليب تعبيرية جديدة واستخدام ألفاظ موحية تعبر عن أجواء روحية .
- تحرير الشعر من الأوزان التقليدية وذلك لمسايرة دفقات الشعور.

4-3-الدادائية: حركة فنية ظهر سنة 1916م أثناء الحرب العالمية الأولى قوامها السخط والاحتجاج، هي حركة عدمية غالت في الشعور الفردي ومهاجمة المعتقدات وطالبت بالعودة إلى البدائية والفوضى الفنية والاجتماعية، تم التوصل إلى بلورتها خلال اجتماع 5فيفري1916م لجماعة من الفنانين والأدباء في ملهى فولتار بمدينة زيوريخ السويسرية بإشراف الكاتب والشاعر تريستيان تزارا، في اللغة الرومانية والسلافية "دادا" تعني أجل، وفي اللغة الفرنسية دادا « **يستعملها الأطفال أحيانا للإشارة إلى حصان صغير من الخشب**»[1]، تم إصدار العدد الأول من المجلة وشارك فيه كتاب وشعراء أمثال بريتون، آراغون، سوبو وغيرهم.

في سنة 1919م نقل الدادائيون نشاطاتهم إلى مدينة باريس وعرضوا على الجمهور إبداعاتهم الفنية، مثل أعمال بيكاسو، والأعمال الفكرية والثقافية، وقد سلكوا جميع الطرق والأساليب التي تتنافى مع الذوق السائد، لم يترددوا في عروضهم ودورياتهم من تخديش المشاعر العامة بالسخرية والضحك واستصدار البيانات والنشريات،

[1]- سارة نيومار، قصة الفن الحديث، سلسلة الفكر المعاصر، مكتبة الأنجلو مصرية، 1984، مصر، ص120.

أسلوبهم التمرد على الوقائع والقيم الأخلاقية وهكذا بدأت من عام 1916م إلى نهايتها عام 1924م، لعل همها ينحصر في طرح مسألة القيم المتمثلة لهذه الصورة البرجوازية للعالم والسعي لتفجير الأطر الضيقة للمفاهيم السائدة، عدَّت الدادائية نفسها «**حركة هدم وتدمير سواء على الصعيد الفني والأدبي والاجتماعي والأخلاقي حطمت هذه النزعة التقاليد الفنية السابقة عاتية بذلك التعبير عن روح التمرد والثورة والعصبية عن المألوف**»[1].

لم يتبع الدادائيون منهجا محددا في التعبير عن أرائهم فقد لجأوا إلى كل الوسائل التي تخطر ببالهم، بما في ذلك الهدم والتخريب والتشويه بشكل يسيء إلى الطبيعة البرجوازية، لذلك عمد بعض فناني هذا الاتجاه إلى تأليف لوحات من أشياء عادية جدا أثارت الرأي العام لكونها غير مألوفة في المجال الفني كصناديق القناني، وفضلات الطعام، «**رسم بيكابيا آلات عبثية لم يكن يريد منها سوى السخرية من العلم والتطور الصناعي**»[2]، وهذا التوجه نحو الفوضى كان سائدا لدى جميع منتمي الاتجاه الدادائي«**إن مظاهرها الجنونية من معارض عجيبة وحفلات رص شاذة غريبة وأمسيات كل ذلك وجدت فيه الصحف مادة غزيرة لتسلية قرائها الذين كانوا أشد الحاجة إلى ما يفرج همومهم ومآسيهم**»[3].

اقتربت الدادائية من الفن التجريدي فكان من نتائجها تقنية رصف المتنافرات من ألوان ورموز أو عناصر تكوينية، في سبيل الحصول على أعمال قائمة على التنابذ الداخلي، وبالتالي لا ينتج الترابط في الصورة من انتظام مظهرها المرئي، وإنما من

[1]- محمد علي أبو ريان، فلسفة الجمال ونشأته للفنون الجميلة، دار الجامعات المصرية، 1977، مصر، ص219.

[2]- محمود أمهز، الفن التشكيلي المعاصر، دار المثلث، 1981، بيروت، ص160.

[3]- سارة نويمار، قصة الفن الحديث، ص184.

الفكرة الرابطة أو من المفارقة، ويعد فرنسيس بيكابيا وماكس ارنست أشهر من استعمل هاتين التقنيتين في أعمالهما، وقد أخذت من التحريض والعداء للتقاليد والأيديولوجيات شعارا لها، يقول تريستيان تازارا بعد المجزرة يبقى لنا الأمل بإنسانية مطهرة.

أهم الأفكار والمبادئ:

- رفض مصادر الدين والدعوة إلى نقد النصوص الشرعية.
- الثورة على الأنظمة السياسية الحاكمة لأنها في منظور الدادائين رجعية مختلفة
- تهتم بأفكار كارل ماركس المادية ونظريات فرويد ونظريات تشارلز داروين، وأفكار نيتشه والتي سموها فلسفة الإنسان الأعلى (السوبرمان).
- رفض كل ما يمت للعقل والمنطق بصلة.
- تبني رغبات الإنسان الغريزية وتفجير طاقاتها الإبداعية.
- الثورة على جميع القيم الدينية والاجتماعية وحتى الاقتصادية والسياسية.
- الدعوة إلى البحث عن طرائق جديدة للاستخدام اللغة لأن الطريقة القديمة من قوى الفكر المتخلف السلطوي.

5-3-السريالية: حركة أدبية وفكرية مؤسسها الشاعر الفرنسي أندريه بريتون بباريس سنة 1924م كرد فعل على الحرب العالمية الأولى، فقد أصاب الإنسان الأوروبي صدمة هزة النفوس وبلبلت الأفهّام وإزهاق الأرواح بلا حساب، درس بريتون الطب والطب النفسي وكان مطلعا على أبحاث سيجموند فرويد في التحليل النفسي، ومهتما بفكرة أن العقل الباطن منشأ الأحلام وهو مصدر الإبداع الفني.

وظف السرياليين التلقائية الفنية Automatism وهي ممارسة شبيهة بتحرير الوعي وتداعي الأفكار لإنتاج أعمال فنية نابعة من العقل الباطن، نحو لوحة الرسام

أندريه ماسون (معركة الأسماكBattle of fishes)، سنة 1926م والتي استخدم فيها خامات متنوعة بداية أخذ بعض الجص وتركه يسقط سقوطا حرًا على قطعة القماش ثم نثر عليه بعض الرمل، وترك حبيباته لتلتصق بصورة تلقائية ثم خربش ورسم حول الأشكال المتكونة، صورت اللوحة سمكتين من فترة ما قبل التاريخ، تتقاطر الدماء من فكيهما وتتقاتلان بشراسة في أحد المستنقعات البدائية، تعبيرا لا واعي عن العنف المتأصل في الطبيعة[1].

نشأت السريالية أيضا بنزعة جارفة للتحلل من القيم الأخلاقية، وتحرير الغرائز والرغبات المكبوتة في النفس البشرية وامتدت هذه النزعة إلى الفن والأدب معا، وهي تسعى لإدخال علاقات جديدة ومضامين غير مستقاة من الواقع التقليدي في الأعمال الأدبية، يرى ماسون أن أسلوب الكتابة الآلية الصرف المميز للكتابة السريالية قابل للتطبيق فنياً سواء في رسوم آلية تُنفذ بآلية تنفيذ الكتابة نفسها أو في الصور الرملية التي لا تترك السرعة الكبيرة المطلوبة لتنفيذها أي مجال للتدخل العقلاني في الرسم، أما ماكس إرنست فيرى أن المطلوب فنياً هو تقديم ما يعادل الآليات الكتابية قياساً، لا ما يطابقها نسخاً، ويجد أن تقانة اللصق، التي سبق له أن برع فيها في مرحلته الدادائية، هي تقانة الفن السريالي بامتياز.

بعد هذين الفنانين المؤسسين دخل الفن السريالي في مرحلة جديدة مع الفنان الكتالوني خوان ميروJoan Miró ، تميزت بالانطلاق من الطبيعة وموضوعاتها، والعمل عليها في اتجاه تضخيم الوجه السحري أو الغرائبي لكل تفصيل من تفاصيلها. وقد بلغت هذه المرحلة أوجها في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية وما أدخلته من تشوهات على الطبيعة. ثم تطور الفن السريالي في اتجاهات عدة تميز فيها عدد كبير

[1]- www.gealgaded.com

من الفنانين مثل رُنيه ماجريت René Magritte وإيف تانجي Yves Tanguy وسلفادور دالي Salvador Dali في التصوير؛ جاكوميتي Giacometti في النحت، و لويس بونويل Luis Buñuel في السينما وصف النقاد اللوحات السيريالية بأنها تلقائية فنية ونفسية، تعتمد على التعبير بالألوان عن الأفكار اللاشعورية والإيمان بالقدرة الهائلة للأحلام .وتخلصت السيرالية من مبادئ الرسم التقليدية. في التركيبات الغربية لأجسام غير مرتبطة ببعضها البعض لخلق إحساس بعدم الواقعية إذ أنها تعتمد على اللاشعور، واهتمت السيريالية بالمضمون وليس بالشكل ولهذا تبدو لوحاتها غامضة ومعقدة، وإن كانت منبعاً فنياً لاكتشافات تشكيلية رمزية لا نهاية لها، تحمل المضامين الفكرية والانفعالية التي تحتاج إلى ترجمة من الجمهور المتذوق، كي يدرك مغزاها حسب خبراته الماضية . والانفعالات التي تعتمد عليها السيريالية تظهر ما خلف الحقيقة البصرية الظاهرة، إذ أن المظهر الخارجي الذي شغل الفنانين في حقبات كثيرة لا يمثل كل الحقيقة، حيث أنه يخفي الحالة النفسية الداخلية. والفنان السيريالي يكاد أن يكون نصف نائم ويسمح ليده وفرشاته أن تصور إحساساته العضلية وخواطره المتتابعة دون عائق، وفي هذه الحالة تكون اللوحة أكثر صدقا [1] .

تأثرت بآراء فرويد بخاصة تلك التي تتحدث عن اللاشعور والأحلام ودعوته إلى تحرير الغرائز، وهذه الآراء تتلاءم مع دعوتهم إلى الانحلال الأخلاقي في المجتمع البشري، واستفادت أيضا من الفكر الماركسي الشيوعي الداعي إلى الثورة لتغير المجتمع وبظهور المزاج الثوري حلت الفوضى السياسية والصراع الكامل محل النظام والانسجام، استلهمت هذه الحركة بعض مبادئها من المذهب الدادائي.

[1]- www.marefa.org

أهم الأفكار والمبادئ:

- الانفلات من الواقع والتعبير عن أمور بعيدة عنه.
- اللاشعور هو المحرك الأساس للعملية الإبداعية بالابتعاد عن رقابة العقل.
- اهمال المعتقدات والدين والقيم الأخلاقية والاجتماعية السائدة في المجتمع.
- البحث عن سبل مبتكرة للتعبير عن أفكارهم وتصوراتهم.
- اعتبار الوجود عبثيا.

4ـ مظاهر حضور مرجعيات الحداثة ومرتكزاتها ضمن الأدب الحداثي:

ارتبطت أشكال الحداثة بكل ما له علاقة بالثورة والتمرد والإتيان بكل ما هو غير مألوف، وبالنسبة للوطن العربي فقد استقبل الحداثة بعد الأزمات التي عايشتها الشعوب العربية من انتكاسات الحرب العربية الصهيونية والسيطرة الغربية المتناوبة بين الانتداب والاحتلال المباشر، كل ذلك خلف شرخا كبيرا داخل النفوس العربية لم يلتئم جزء منه إلا بعد صعود موجات التحرر وتحقيق انتصارات كبرى كان نتيجتها الاستقلال في معظم الأقطار العربية، وبقي جزء آخر لم يندمل بدءا بالأراضي الفلسطينية المحتلة وما تعانيه الدول العربية اليوم من كل أشكال الظلم والتبعية والخذلان. وفي ظل ذلك الجو القاتم برز مجموعة من الأدباء والمفكرين المتبصرين بالثقافة الغربية الداعين إلى التغير والتأسيس لمناخ ثقافي عربي مغاير لما كان سائدا من قبل، فتم تأسيس منابر شعرية تُعنى بالتأصيل للحداثة العربية والدعوة إليها، نحو مجلة القيثارة التي ظهرت في اللاذقية عام 1946م، على يد علي ناصر وأورخان ميسر، ولكن تأثيرها كان محدودا، ليكون التغير الكبير مع مجلتي شعر(1957) ومواقف(1968).

تعد مجلة شعر الأبرز في التقديم لمشروع حداثي عربي متسق ومنسجم، أسس يوسف الخال المجلة لتعبر عن الحداثة بكل صورها، فلا تقتصر على الشعر فحسب، بل في كافة

المجالات الثقافية فقد اعتبر الحداثة «**ليست أشكالا يقتبسها الإنسان أو زيا يتزيا به، لأن المهم هو ما وراء الأشكال والأزياء، وهذا الماوراء هو الذي نسميه بالعقلية فإما أن تكون ذا علية حديثة أو لا تكون، بمعنى أن تأخذ بالجوهر لا بالمظهر**»[1].

يستند المشروع الحداثي للمجلة إلى: اختلاف تجربة الإنسان المعاصر عن تجربة الإنسان القديم ومعاناته، لذلك كانت رؤى الشاعر المعاصر مختلفة ويفترض هذا شعرا جديدا، رأى يوسف الخال أن الحداثة مسارها غربي ولكنها نتاج تراكمات معرفية إنسانية مختلفة كان للعرب فيها دور هام قبل انحطاطهم وتراجعهم، وقد انضم إلى مجلة شعراء عدة نحو أدونيس، محمد الماغوط، بول شاوول، أنسي الحاج وغيرهم من الشعراء، وقد أوجز يوسف الخال أسباب إصدار المجلة في قوله «**حركة الشعر العربي الحديث، بعد منتصف هذا القرن، حركة ثورية تطورية تنبع من داخل تراث الأدب العربي لا من خارجه، وهي حقيقة تفرضها اللغة العربية وثقافتها، فالحركة نهضة هدفها رفع النفس العربية إلى مستوى الحداثة، ولا صلة لها بالصراع المألوف بين الجديد والقديم أو بين الشباب والشيوخ، فهي قديم يتجدد مع الحياة، شأنها في ذلك شأن الولادة الجديدة، فنحن لا نجدد لأننا قررنا أن نجدد، بل لأن الحياة تتجدد فينا، فالمستقبل لنا، ولا حاجة بنا إلى صراع مع القديم، وإذا كان من صراع فهو مع بعض دعاة الحركة الحديثة والجاهلين وشعرائها المزيفين**»[2].

مجلة شعر أرادت الخروج من الأنماط القديمة الجامدة للأدب العربي وبحثت في سبل تجديده وبعث الحياة فيه من جديد، ورفض الأساليب القديمة البائدة التي لا تصلح أن يُعبر بها الأديب عن نظرته، لذا رأت على الشاعر مثلا أن يكون صاحب رؤيا، أي رؤيا في الإنسان والوجود تستكشف العالم وترسم أبعاده، لقد ألحقت مجلة شعر الشعر العربي

[1]- يوسف الخال، الحداثة في الشعر، دار الطليعة، 1978، بيروت، ص16.
[2]- المرجع نفسه، ص93.

التقليدي بالرؤية ومنحت الشعر الذي تُنظر له وتؤسس له مفهوم الرؤيا، فالشعر الذي يقتصر على الوصف ونقل الوقائع والأحداث لا يكاد يعدو نطاق الرؤية، أما شعر الرؤيا يقود الإنسان إلى عتبات كل ما لم يخلق فتكون له تجربة مع الواقع ورؤيا تتجاوزه.

أتت المجلة أيضا بمفهوم التجاوز أو التخطي بمعنى أن الشاعر برؤياه ينفذ إلى ما وراء قشرة العالم، وبقدر ما يغوص في أعماق العالم يخلق أبعاد إنسانية وفنية جديدة، إن المجلة من هذه الزاوية فتحت أمام الشاعر عالما أنضر وأغنى، وجعلته بصيرا بذلك الوجود المطلق اللانهائي، إضافة إلى ذلك دعت إلى اتخاذ مفهوم الوحدة القائم على العالم الطافح بالتضاد واللاتجانس وعلى الشاعر توحيد كل ذلك، فيبدو العالم كله مرئيا من جديد بحدس جديد، ومن زوايا مختلفة.

فعل المعرفة هو الآخر من المفاهيم الأساسية بالنسبة للمجلة فتؤكد على القيمة المعرفية للحدس الشعري، فترفعه درجات فوق مصادر المعرفة الأخرى، وتحديدا العقل الذي يعجز في نظرها عن الوصول إلى الحقيقة وهي بذلك تأثرت بفلسفة كانط، التي قسم فيها العالم إلى قسمين؛ عالم ظاهر وعالم الشيء في ذاته؛ فهناك أشياء على نحو ما تبدو لنا وهناك أشياء كما هي في ذاتها، بالتالي الإنسان قادر على معرفة الظاهر أما عالم الشيء في ذاته لا يمكن معرفته، وتؤكد مجلة شعر على حضور الحدس فهنا تنزع إلى التعريف التقابلي **العقل /الحدس**، فالشعر أصبح له قدرة على اكتشاف العلائق الخفية. وتستند المجلة إلى أفكار برجسون وهيوم في جعل الفن: عينا ميتافيزيقية فاحصة، أو إدراك مباشر يتيح لصاحبه النفاذ إلى باطن الحياة وسبر أغوارها، وهذا يتماشى مع توق الشعر الحديث للكشف عما لا يقدر بصرنا النفاذ إليه.

كما ركزت مجلة شعر على مفهوم آخر هو فعل الخلاص، فالقصيدة بحسب المجلة لا تمتلك أي دلالة إلا إذا كانت مشهدا تتحرك فيه الهموم الإنسانية وعلى رأسها القلق أمام الوجود والمصير، والشعر من حيث هو كاشف لعزلة العالم، فالشعر الذي تؤسس له

المجلة إنما هو في عمق دلالته شعر خلاص؛ خلاص الذات أمام قلقها الوجودي المصيري، ونزوعها نحو المطلق. وبالإمكان إجمال أبرز مظاهر الحداثة في الإبداع الأدبي في النقاط الآتية:

- الكتابة الأدبية تُصبح استقصاء لإعادة تكوين العالم.
- تنطلق اللغة من مفهوم سريالي فالشاعر هو القادر على استحداث قوالب لغوية مخالفة لما سبق.
- جمال اللغة يعود إلى نظام المفردات وعلاقاتها، وهو نظام خاضع للانفعال والتجربة ولا يتحكم فيه النحو وقواعده.
- اللغة تتميز بالإيحاء لا بالتصريح.
- نبذ القواعد والتسليم بمبدأ التطور، لتحرير اللغة.
- اللغة عند الشاعر رمز أكثر منها معنى.
- الكتابة لا تعود مجرد نقل وإنما تصبح بحثا.
- ليست وظيفة الكتابة التبشير والتفسير والشرح وفض السر، إنما الكتابة تساؤل يراكم سرا على سر، فتصبح بذلك خفاء لا جلاء.
- اللغة في الشعر لا تخلو من التكثيف والتعقيد.
- الابتعاد عن الأحكام القديمة.
- التجديد في الموضوعات وإن كانت ضد الذوق العام.
- نبذ الأخلاق والتقاليد.
- لا علاقة للدين في التحكم بالناس بالتالي الاستهتار به.
- الثورة ضد المألوف.
- ظهور المسرح العبثي.
- الرمز عنصر أساس في العملية الإبداعية.

- الشذزذ والغرابة
- تشويه الرموز الدينية.
- خلخلة المفاهيم السائدة في المجتمع.
- الإبداع تجاوز وتخطي للمألوف، فظهرت قصيدة النثر.

الخاتمة

مثلت الحداثة ثورة في شتى المجالات الإنسانية، فلم تقتصر على مجال دون الآخر، وكل مجال أخذ منها ما يتطلبه وفق نظامه الخاص، فصراع الإنسان مع اكراهات الواقع المحتدمة والمضطربة جعلته يطمح للتغير والتحدي بالاستعانة بالرهانات الابستمولوجية التي في كل مرة كانت تتشكل بصيغ متجددة، على اعتبار أن المعارف تراكمية وتفاعلية ترفض الجمود والإقصاء، وأكبر انتصار حققته الحداثة هو الإعلاء من شأن العقل ووضعه المكانة التي يستحقها، وبموجب ذلك كان الانتقال الأهم من عصر الظلمة والتحجر إلى عصر التحرر والعلم والفكر عصر لا سلطة على العقل.

الحداثة بمفهومها الواسع استوعبت الأنماط الحضارية المختلفة وانتقلت من مهدها الغربي إلى الحاضنة الثانية البيئة العربية، التي بفضل ثلة من مفكريها وفلاسفتها وأدبائها سعت إلى غرس أطر جديدة للتفكير مناقضة لما كان سائدا، قصد فتح الآفاق والخروج من قوقعة الجمود التي دار في فلكها العقل العربي، بعد ازدهاره ونشاطه، لذلك ظهرت فلسفات ونظريات كثيرة أحدثت خلخلة على مستويات الحياة الإنسانية للفرد العربي، ومازالت تتطور في عهد ما بعد الحداثة.